إضاءات نقدية (فصلية محكّمة)
السنة الأولى – العدد الرابع – شتاء ١٣٩٠ش/كانون الأول٢٠١١م

دراسة الرجز فی العصر الإسلامی

سید محمد رضی مصطفوی نیا*

الملخص

كان الرجز أحد الأركان الأصلية فی الحروب الماضية، الركن الذی كان يلقی لبواعث مختلفة مثل إيجاد الخوف فی قلب العدو وتعزيز قوی الروحية للجيش و... . رغم أن الرجز فی العصر الجاهلی والعصور التالية استخدم فی الموضوعات المختلفة، مثل الأراجيز التی حتی أنشدت فی وصف بعض الحيوانات كالضبع والفأر والحية، لكن علينا أن نعدّ مصدر الرجز الأصلی، معركة القتال. فنبحث فی الرجز بواسطة هذه المضامين الأصلية كمرآة لتبيين الثقافة والرسوم والعقائد، تبيينا تاما فی العصرين الجاهلی والإسلامی إذ إنّ لهذه الأراجيز لغتها الخاصة بها فی كل عصر؛ فنری فی العصرين الجاهلی والإسلامی ضعفا وشدة للمعانی المطروحة للرجز حيث نلاحظ فی العصر الإسلامی طرح المعانی الجديدة كالصمود، والصبر، والوفاء، ونصرة النبی(ص)، والأئمة(ع) و... بدل القتل، والسلب، والتفاخر علی القبائل الأخری، والهجو، والذم و... .

إنّ أدب المقاومة الذی يعدّ من مظاهر الشعر الحماسی نبع من صميم الثقافة الشيعية وذاتها كما تأثر هذا الأدب كثيرا بحماسة كربلاء. فانطلاقا من ذلک تتعرّض هذه المقالة كذلک لتحليل أراجيز أصحاب سيد الشهداء معتمدة علی طريقة التوصيف والتحليل.

الكلمات الدليلية: الرجز، أهل البيت (ع)، كربلاء، الحماسة، العصر الإسلامی.

---

*. عضو هيئة التدريس بجامعة قم – أستاذ مساعد.
التنقيح والمراجعة اللغوية: د.مهدی ناصری

Mahdinaseri23@yahoo.com

تاريخ الوصول: ١٣٩٠/٩/٢٥هـ. ش
تاريخ القبول: ١٣٩٠/٩/٢٩هـ. ش

المقدمة

يعتبر الرجز المظهر التام لظهور العقائد والإحساسات والآمال، الذى يختاره الراجز لتعريف نفسه ودواعى مشاركته فى الحرب. يتم وضع هذا الفن المنيع فى الأدب العربى تحت المجهر فى هذا البحث العلمى حتى يتبين لنا سير تحول هذا الفن من العصر الجاهلى إلى العصر الإسلامى خاصة تطوره فى المعنى والقيم السائدة فى الأراجيز، التحول الذى غير أركان الأراجيز فى المعانى ببزوغ فجر الإسلام، وأعطى لها غنى وافرا.

وبالنظر إلى الموقع الرفيع للرجز والمكان الحساس لاستعماله تتعرّض هذه المقالة للزوايا الخفية لهذه الظاهرة الفنية حتى نحصل خلال هذه المقالة على الزوايا الخفية للرجز ونحصل على الظروف الحاكمة والسائدة على المجتمع آنذاك ونلتقط العبر عبر هذه الكلمات لأنفسنا.

ومن الأهداف المطلوبة فى هذه المقالة هو التعرف على الماهية الثقافية والبعد القيمى والفنى للأراجيز إذ إنّ الرجز عندنا هو إحدى القمم الرفيعة لظهور الثقافة والدين. ومن الأهداف التطبيقية لهذه المقالة هى: أن القارىء الكريم كذلك بواسطة قراءة هذه المقالة ومن خلال التعمق والتحليل فى معانيها يحصل على بصيرة جديرة بالذكر لمعرفة الجريانات الموجودة فى مجتمعه اليومى، ويستطيع أن يقوم بمقارنة الأفكار والعقائد الرائجة فى نفس المجتمع وبين العقائد والمعانى التى شبّت الحروب بسببها فى العصرين الجاهلى والإسلامى. فيقول صاحب كتاب (الشعر فى موقعة صفين) فى هذا الشأن أن: «الرجز مع النظر إلى هذا التغيير الأساسى والحياتى بدأ بالحركة إلى التأسلم. والرجز سجل فى هذه الفترة (العصر الإسلامى) تطورا موضوعيا وفنيا نحو الإسلامية، وأنه خطا الخطوة الأولى من صورته القديمة الجاهلية إلى صورة جديدة إسلامية، وهى خطوة لم تظهر بوضوح فى رجز الفتوح الأولى.» (عدنان محمد، ٢٠٠٥م : ٢٥)

الرجز

يعتبر الرجز إحدى البحور العروضية القديمة فى الشعر العربى الذى بنى على

(مستفعلن) وهذه التفعيلة تعاد عادة ست مرات أثناء بيت واحد:

دارٌ لسلمی إذ سُليمی جارهٌ قَفْراً تُری آياتُها مِثلَ الزُبَر
دار لسل | ما إذ سلی | می جارتن قفرن تری | آياتها | مثلز زبر
مستفعلن مستفعلن مستفعلن مستفعلن مستفعلن مستفعلن

(قدری، ١٤٢١ ق/٢٠٠٠م: ١٠١)

قد شهد هذا البحر كباقی البحور الشعرية تغييرات عديدة حيث تأتی تفعيلة (مستفعلن) بعض الأحيان علی وزن (مفاعلن) أو (مفتعلن) أو (مفعولن) أو (فعلتن)، وكذلک نری بعض الأحيان أن عدد الأبيات يصل إلی أربعة. (المصدر نفسه: ٤٤)

سمی الرجز رجزا لمشابهة بين هذا البحر الشعری مع طريقة خاصة لنهوض الإبل من مكانه، لأن أصل الكلمة يدلّ علی الاضطراب والتحرک فی رجل البعير الخلفية، الذی يحدث حينما يريد البعير النهوض من مكانه. يقول ابن منظور فی (لسان العرب): «الرَّجَز: أن تَضطَرِبَ رِجْلُ البَعيرِ اَو فَخذاهُ إذا أرادَ القيامَ أو ثارَ ساعةً ثُم تَنبَسِطُ... . وإنَّما سُمِّیَ الرَّجَزُ رَجَزاً لِأنَّهُ تَتوالی فِيهِ فِی أوَّلِهِ حَركةٌ وسُكونٌ ثُمَّ حَركَةٌ وسُكونٌ إلی أن تَنتَهِیَ أجزاؤُهُ يُشبِهُ بِالرَّجَزِ فی رِجْلِ الناقَةِ ورِعْدَتِها وهو أن تَتَحَرَّکَ وتَسكُنَ ثُمَّ تَتَحَرَّکَ وتَسكُنَ.. .» (ابن‌منظور، لاتا: ١٠٤/٦)

كان الرجز فی العصر الجاهلی مختصا إلی مواضيع معينة مثل التفاخر إلی الكرم والشجاعة وإلی الطائفة والقوم وقتل الأقوام بعضهم بعضا، والميل إلی الانتقام، وإلی توصيف ساحات القتال وذكر المراثی. وبعد الورود إلی العصر الإسلامی أضيفت مفاهيم أخری مثل ثناء الله، والإيمان إلی يوم القيامة والدفاع عن الإسلام والرسول الأكرم (ص). رغم أن هناک مشابهة بين الرجز الجاهلی والرجز الإسلامی فی الأسلوب لكن نری التحول والتغيير فی الموضوع والمفهوم.

ونحن نعرف أن الشجاعة أو الحماسة عنصر لايتقيد بالزمان ولايمكن تقييده إلی العصر الجاهلی أو الإسلامی، لكن الأمر المذموم والجاهلی هو العصبيية المنشأة من التعلقات القومية والطائفية كما أن النبی الأعظم (ص) أشار إلی هذا المضمون فی قوله:

«لَيسَ مِنّا مَن دَعا اِلى عَصَبيه، ولَيسَ مِنّا مَن قاتَلَ عَلى عَصَبيَّه، ولَيسَ مِنّا مَن ماتَ عَلى عَصَبيه.» (سليمان بن الأشعث، لاتا: ۳۳۲/۴)

كذلک روى عنه (ص): «ومَن قاتَلَ تَحتَ رايهٍ عَميَةٍ يَغضَبُ لِلعَصَبيةِ أو يَدعوا إلى عَصَبيه أو يَنصُرُ عَصَبيهً فَقُتِلَ قَتلة جاهِلية.» (البيهقى، ۱۹۹۴م: ۱۵۶/۸)

ليس فى الإسلام سبب للتفاضل والتفاخر إلا بالتقى ولايوجد سيادة لقوم على قوم إلا وهو يتمتع من هذه الميزة الإلهية وهذا الأمر من أول ما علّمنا النبى(ص): «لا فَضلَ لِلعَرَبى عَلى العَجَمي وَلا لِلاَحمَرِ عَلَى الاَسوَدِ اِلّا بالتَّقوى.» (المجلسى، ۱۴۰۴ق: ۳۴۸/۲۲)

ومن أمثلة الأراجيز الإسلامية التى راجزه غير معلوم هو:

اَلحمــدُ لِلّهِ الّــذى لَم يَخلُــقِ الخَلقَ عَبَث
لَــم يَخلنا يَوماً سُــدىً مِن بَعدِ عيسى وَاكتَرَث
اَرســلَ فينــا اَحمــداً خَيــرُ نَبــيٍ قَــد بَعَــث
صَلّــى عَلَيــهِ اللهُ مــا حَجَّ لَــهُ رَكــبٌ وَحَث

يعنى كل الثناء لله الذى لم يخلق شيئا عبثا؛ ولم يتركنا سدى بعد نبيه عيسى(ع)؛ أرسل لنا رسول الله، الذى هو خير رسل الله على الأرض؛ صلوات الله عليه إلى يوم القيامة. (ابن كثير، ۱۹۸۶م: ۲۳۶/۲)

إنّ تأثير الإسلام على معانى الرجز واضح فى المعارک التى وقعت فى صدر الإسلام، كما نرى أن التفاخر إلى الإسلام جاء بدل التفاخر إلى القوم والطائفة. و لم يكن الراجز بعد الإسلام يباهى بعشيرته وطائفته بل كان يباهى بإيمانه وإسلامه وكان يوعد المشركين إلى نار الجحيم. لكن نرى هناک تراجعا فى هذا التعالى بعد زمن النبى الأعظم (ص) وبعد تصدى الحكومة الأموية الحكم، نرى نفس المعانى السائدة على الأراجيز الجاهلية تأتى وتسود على سائر المضامين ونرى العصبية الطائفية التى ناهضها الإسلام وجعلها مقابل القيم الإسلامية مثل التقوى، كيف تموج فى أراجيز المعارک التالية مثل وقعة صفين.

هناک فی نفس الزمان أراجیز تنبع من أصل کریم فی وقعة کربلاء وتعلو هذه الأراجیز القیم الإسلامیة فی أعلی درجاتها وباستطاعتنا أن نعدّ هذه الأراجیز مصداقا بارزا لأراجیز الصمود والمقاومة. فهذه الأراجیز خالیة عن أی عصبیة جاهلیة، وکأنها کفیلة فقط عن طرح موضوعات مثل الدفاع عن الإسلام وعن أهل بیت رسول الله (ص).

نسعی فی هذا المقال أن ندرس أراجیز العصر الجاهلی والعصر الإسلامی، وسیر تکامل هذا الأسلوب الشعری، وندرک مدی تأثیر أراجیز عاشوراء علی أدب المقاومة بعد وقعة کربلاء. وللحصول علی هذا المطلوب نذکر بعض الأمثلة من الرجز الجاهلی ثم ندرس الأراجیز المنشدة فی معارک بدر، وأحد، وخندق وصفین التی فیها مشابهة مع أراجیز معرکة کربلاء؛ وتضاهی وقعة عاشورا من جهة أنه فی هذه الحروب کان عدد المسلمین قلیلا وعدد الکفار والمشرکین کثیرا ووقعة کربلاء کان کذلک، وحرب صفین کذلک کان فیها تقابل بین بنی هاشم والأمویین وکذلک کانت وقعة کربلاء. فی النهایة للتبیین الأکثر نأتی بأراجیز الکوفیین حتی نوضح الفرق بین هذه الأراجیز وأراجیز أصحاب سید الشهداء(ع) بصورة جیدة.

الف. أراجیز العصر الجاهلی

یعتقد بعض مؤرخی تاریخ الأدب العربی أن الرجز هو أول بحر شعری فی الأدب العربی الذی استخدمه شعراء الجاهلیة وهو فی الواقع السجع المتکامل. یقول (بروکلمان) حول هذه القضیة: «یَنبَغی أن یَکونَ أقدَمُ القَوالِبِ الفَنّیةِ العربیةِ هُو السَّجعُ، أی النَّثرُ المقَفّی المجَرَّدُ مِنَ الوَزنِ... وتَرَقّی السَّجعُ اِلی بَحرِ الرَّجَزِ المتَألِّفِ مِن تِکرارِ سَبَبَینِ ووَتَدٍ لِیَسهُلَ عَلی السَّمعِ ویَبلُغَ أثَرُهُ فی النَّفسِ.» (بروکلمان، لاتا: ۵۱/۱)

وبما أن الرجز عند بعض العروضیین لایعدّ (شعرا)، لهذا السبب یقال للذی ینشد الأرجوزة (راجزا) لا (شاعرا). یقول صاحب لسان العرب: «وزَعَمَ الخَلیلُ أنَّ الرَّجَزَ لَیسَ بِشِعْرٍ وإنما هُو أنْصافُ أبیاتٍ وأثْلاثٌ. . . والرَّجَزُ : بَحرٌ مِن بُحورِ الشِّعْرِ مَعروف ونَوعٌ

مِن أَنواعِهِ يَكونُ كُلُ مِصْراعٍ مِنهُ مُفرَداً وتُسمّى قَصائِدُه أراجِيزَ واحِدَتُها أرْجُوزَةٌ وهِيَ كَهَيئَةِ السَّجْعِ إلّا أَنَّهُ فی وَزنِ الشِّعْرِ ويُسَمَّی قائلُهُ راجِزاً كَما يُسَمَّی قائلُ بُحورِ الشِّعْرِ شاعِراً.» (ابن‌منظور، لاتا: ۱۰۴/۶)

لم يكن هذا البحر الشعری شائعا عند شعراء الجاهلية. يقول الجاحظ فی (البيان والتبيين): «مِنَ الشُّعَراءِ مَن يَحكُمُ القَريضَ وَلايُحسِنُ مِنَ الرَّجَزِ شَيئاً فَفی الجاهِلِيَةِ مِنهُم زَهير والنابِغَةِ والأَعشی وأما مَن يَجمَعُهُمَا فَامرُؤُالقَيس ولَهُ شَیءٌ مِنَ الرَّجَزِ وطَرفَةٌ ولَهُ كَمِثلِ ذلكَ ولَبيدٌ.» (الجاحظ، ۱۹۶۸م: ۵۹۹/۱)

ونری المعانی فی هذا العصر نفس المعانی السائدة فی العصر الجاهلی فی سائر البحور الشعرية يعنی الفخر والحماسة والهجو. ومن أمثلة ذلک:

هذا رجز امرئ القيس عندما يسمع أن بنی أسد قتل أباه:

تَــاللهِ لا يَذهَبُ شَــيخِی بَاطِلا حَتّــی أبيــرَ مالــكاً وَكاهِلا
القاتليــنَ المَــلِــكَ الحُلاحِلا خَيــرَ مَعَــدٍّ حَسَــبــاً وَنائِلا
يــا لَهفَ هِنــدٍ إذ خَطِئنَ كاهِلا نَحــنُ جَلَبنا القُــرَّحَ القَوافِلا

و...

(امرؤالقيس، لاتا: ۱۳۴)

ويهجو لبيد بن ربيعه فی رجز ضمرة بن جابر الذی كان من أشراف بنو نشهل عندما كان أسيرا فی يد طائفة بنی كلاب، بألفاظ قبيحة ويقول:

يا ضَمرَ يا عَبــدَ بَنی كِلابِ يا وَرلاً أُلقِــیَ فــی سَــرابِ
أَكانَ هَــــذا أَوَّلَ الثَــوابِ لا يَعلَقَنــكُــم ظُفُــری وَنابی
إنّی إذا عاقَبــــتُ ذوعِقابِ بِــصــارِمٍ مُــذَكَّــرِ الــذُبابِ

(لبيد بن ربيعة، ۱۹۹۳م: ۵۸)

أی: يا ضمر الذی أنت عبد بنی كلاب، يا وَرلاً رميت فی المياه النتنة، هل هذا أول حسنک؟ أنت دنی إلی مرتبة لا تجدر أن أشير بيدی إليک وأتكلم حولک، أنا الآن بواسطة سيفی الصارم أجازيک كما أجازی الذباب.

وينشد فی رثاء أخيه:

اِنــعَ الكَريــمَ لِلكَريــم أَربَــدا انــعَ الرَئيــسَ وَاللَطيــفَ كَبِدا
يُحذى وَيُعطــى مالَــهُ لِيُحمَدا أُدمــاً يُشَــبَّهنَ صُــواراً أُبَّــدا
الســابِلُ الفَضــلِ إِذا مــا عُدِّدا وَيَمــلأَ الجَفنَــةَ مَــلأً مَــدَدا

(المصدر نفسه: ۶۳)

أی: قل حول أربد الكريم إلى الكرماء، وتكلم حول السيد أربد، الشخص الحنون، الذی يبذل أمواله للذكر الحسن، المصلح الذی دوما يشبه الكرماء، الذی بذله دائمی ولايعد، ويملأ عيون الآخرين.

والنابغة الذبيانی يمدح نفسه بهذه الصورة:

نَفسُ عِصامٍ سَــوَّدَت عِصاما وَعَلَّمَتــهُ الكَــرَّ وَالإِقدامــا
وَصَيَّرَتــهُ مَلِــكاً هُمامــا حَتّــى عَلا وَجــاوَزَ الأَقواما

(النابغة الذبيانی، ۱۹۹۱م: ۱۵۸)

أی: هذا روح عصام الذی جعله أسود الوجه، وعلمه الهجوم فی الحرب وكيفية المناضلة، وجعل منه ملكا كبير الشأن، إلى مدى يعلو كل يوم ويسود على سائر الأقوام.

وكما أشرنا آنفا غيرت مفاهيم الرجز بواسطة الإسلام تغييرا عظيما. تقول رجاء الجوهری فی هذا الشأن: «وهكَذا تَمَخَّضَ رَجَزُ الحَماسَة الجاهِليَة عَن رَجَزِ الجهادِ فی صَدرِ الاِسلامِ مَعَ اختِلافٍ فِی دَوَاعِی استِعمالِه، فَالأَوَّلُ كانَ يَقُومُ عَلى إثارَهِ النَعَراتِ الجاهِليَة وَالدَعوَة إلى الأخذِ بِالثَّأرِ وَالانتِقام، أَمَّا الثّانِی فَقَد دَعاهُم إلَيهِ داعِی الإِسلامِ وَحَبّ نُصرَتَه وَالرَغبَة وَالاِستِشهادَ فِی سَبيلِ اللهِ ونُصرة هذا الدّينِ الحَقِّ.» (الجوهری، لاتا: ۴۲)

ب. أراجيز بدر وأحد وخندق

بعد فحص كثير فی الكتب التاريخية مثل: الكامل، والمغازی، وتاريخ اليعقوبی،

وتاريخ الطبرى، وتاريخ الإسلام، وكتاب البداية والنهاية، وجدنا أن هناك عددا قليلا من الأراجيز التى لايمكن قياسها بالحجم الكبير من أراجيز عاشورا. ونحن نذكر قدر الحاجة بعض هذه الأراجيز.

١. الأراجيز التى أنشدت فى غزوة بدر (البدر العظمى) فى السنة الثانية من الهجرة:

رجز عمير بن حداد فى أثناء الحرب:

رَكضــاً إلَــى اللهِ بغَيــرِ زادٍ الا التُقــى وَعَمَــلِ المعــادِ
والصَّبرُ فِــى اللهِ عَلَى الجِهادِ وكُلُّ زادٍ عُرضَــه النَّفــادِ
غيــرَ التُّقى والبِرِّ والرَّشــادِ

(ابن كثير، ١٩٨٦م: ٢٧٧/٣)

والرجز الآخر لمجذر بن زياد بعد قتله أبا البخترى بعد أن نهى رسول الله (ص) المسلمين عن قتله:

امّــا جَهِلت اَو نَســيت نَسَــبِى فأثبَــتَ النِّســبَةُ انّــى مِن بَلى
اَلطّاعِنيــنَ برِمــاحِ اليَزَنِــى وَالطّاعِنينَ الكَبشِ حَتّى يَنحَنِى
بَشِّــر بِيُتــم مَن اَبُــوهُ البُختَرى اَو بَشِّــرنَ بِمثلِهــا منّــى بَنِــى
اَنا الّذى يُقــالُ اَصلِى مِن بَلى اَطعــنَ بِالصَّعــدَه حَتّــى تَنثَنِى
واَعبَطُ القَرنَ بِعُصبٍ مَشــرَفى اَرزَمَ لِلمَــوتِ كَارزامِ المَرى

(ابن كثير، ١٩٨٦م: ٢٨٥/٣)

أى: إن لم تعلم أو نسيت نسبى، إن نسبى بنفسه سوف يقول لک: أنى من قوم بلى، ذلک القوم الذى يقتل أعداءه برماح يزنى، وذلک القوم الذى يسقط على الأرض الكبش الكبير، قولوا لابن البخترى أنه عن قريب يصبح يتيما، أو قولوا هذا الخبر لأولادى ولا أخاف، أنا الذى أقول أصلى من قوم بلى، وأقتل صعدة بضربات رمحى، وأكسر القرون بحد سيفى، أنى أصيح على الموت كإنسان حائر. وليس له مفر إلا أن يسلم نفسه إلى الموت.

ومن الواضح أنه لايرى أثر من المفاهيم الإسلامية فى هذا الرجز، إلا أن الراجز

كان شخصا مسلما.

عندما كانوا يأتون بأسرى بدر إلى المدينة رجز راجز باسم عدى بن أبو زغباء:

أقِـم لَهـا صُدُورَها يا بَسـبَس لیسَ بِـذی الطَّلح لَهـا مُعَرَّس
وَلا بِصَحـراءَ عَمـرؤ مُحبَـس إنَّ مَطايـا القَـومِ لا تُحَبّـس
فَحَمَلَهـا عَلَى الطَّريـقِ اَكيَس قَـد نَصَـرَ اللهُ وفَـرَ الأخنَـس

(ابن كثير، ۱۹۸۶م: ۳۰۵/۳؛ الواقدی، ۱۹۸۹م: ۴۵/۱)

أی: أيها البرارى الواسعة، هيأ له قلبک، لأنه على أولياء طلح أن يعلموا أنه لايرى عروسا لنفسه، وما رأى إلى الآن أحد ملكا محبوسا فى الصحراء، اعلموا أنه لا يمكن حبس قيم قوم، لكن تضييعه نوع من الفطانة، إن الله سوف ينصرنا.

ولانرى فى هذا الرجز شيئا من الإسلامية إلا لفظة واحدة من المظاهر الإسلامية وهى لفظة «الله» الشريفة.

۲. الأراجيز المنشدة فى غزوة أحد فى شهر شوال فى السنة الثالثة للهجرة:

يعطى الرسول الأعظم (ص) سيفا إلى أبى دجانة الأنصارى، وبعد قتال شديد ينشد:

اَنـا الَّـذی عاهَدَنـی خَليلِـی وَنَحـنُ بِالسَّـفحِ لَـدَی النَّخيلِ
اَن لا اَقـومَ الدَّهرَ فـی الكُيُولِ اَضـرِبُ بِسـيفِ اللهِ وَالرَّسُـولِ

(ابن كثير، ۱۹۸۶م: ۱۶/۴؛ الطبرى، ۱۹۶۷م: ۵۳۳/۲)

أی: أنا الذى عاهدنى الرب، ونحن معروفون بالكرم، إننى لست كباقى الناس البخلاء الذين يتفكرون فى الكيل والمكيال، وإننى أقاتل بسيف الله ونبيه.

عندما يقتل حمزة بن عبد المطلب أحد مقاتلى المشركين باسم عثمان بن أبى طلحة يرتجز ويقول:

إنَّ عَلـى أهلِ اللِـواءِ حَقّاً أن يَخضَبُوا الصَّعدهَ أو تَندَّقاً

(ابن كثير، ۱۹۸۶م: ۱۷/۴؛ الواقدی، ۱۹۸۹م: ۲۲۶/۱)

أی: إن لنا حقا على أهل اللواء، إلى أن أقتل قبيلة صعدة وتندق.

وترتجز هند على صخرة بعد أن جعل المسلمون جبل أحد ملجئا لأنفسهم:

نَحــنُ جَزَينــا كــم بِيَــوم بَــدرٍ وَالحَربُ بَعدَ الحَربِ ذاتَ سِــعرِ
مــا كان لِــى عَن عَتبَــهٍ مِن صَبرٍ وَلا اَخِــى وَعَمِّــه وَبَكــرِ
شَــفيتُ نَفسِــى وَقَضَيــتُ نذرى شَــفَيتُ وَحشــىّ غَليلَ صَدرِى
فَشُــكرُ وَحشــيٍ عَلــى عُمرِى حَتّــى تَــرُمَّ اَعظُمِى فِــى قَبرِى

(ابن كثير، ١٩٨٦م: ٣٧/٤)

أى: نحن أعطينا جزاءكم يوم بدر، والحرب بعد الحرب ذات قيمة، ولاأستطيع التحمل بعد عتبة، ولاأستطيع التحمل كذلک بعد أخى وعمى ولا بعد بكر، إنى جعلت نفسى هادئا حتى أؤدّى نذرى، وأننى أشفى غليل صدرى، والشكر لهذا الغليان إلى نهاية عمرى، عندما تنخر عظامى فى قبرى.

ثم أجابتها هند بن أثاث بن عباد بن مطلب هكذا:

خَزَيــتِ فِــى بَــدرٍ وَبَعــدَ بَدرٍ يــا بِنــتَ وَقّــاع عَظيــمَ الكُفرِ
صَبَّحَــکِ اللهُ غَــداة الفَجــرِ وَلا اَخِــى وَعَمِّــه وَبَكــرِ
شَــفَيتُ نَفسِــى وَقَضَيتُ نَذرِى مِــنَ الهاشِــميينَ الطِّــوالَ الزُّهرِ
بِــكُلِّ قَطّــاعَ حِســامٍ يَفــرِى حَمــزَةَ لَيثِــى وَعَلــىّ صَقــرِى
اِذ رامَ شَــيبٌ واَبُــوکَ غَــدرِى فَخَضَّبــا مِنــهُ ضَواحِــى النَّحرِ
وَنَــذرُکَ السُّــوءُ فَشَــرُّ نَــذرٍ

(ابن كثير، ١٩٨٦م: ٣٨/٤)

أى: يا هند ذللت فى حرب بدر وبعدها، يا بنت كبير الكفار، والله يجعلک حيا عند الصباح، وأننى لاأفكر بأخى ولا عمى ولا بكر، أنى شفيت نفسى وأديت نذرى، حول العترة الهاشمية التى لها وجوه مشرقة، وأقسم بكل سيف قاطع للعروق، أن حمزة أسدى وعلى صقرى، عندما تكون عند فتى عربى الفتوة فى حين أبوک يخادعنى، إذن علينا أن نصبغ وبر الآبال بدمه، وهذا نذرک وشر النذور.

هذا الرجز كذلک يفتقد للمعانى الإسلامية وفقط تجيب على هجو المرتجزة. وكليا أن الأراجيز البدرية كذلک لايمكن توصيفها بوصف الإسلامية.

۳. الأراجيز المنشدة فی غزوة خندق فی السنة الخامسة للهجرة:

يرى الرسول الأعظم (ص) المهاجرين والأنصار فی حال الجوع والتعب فی صباح بارد وهم مشغولون بحفر الخندق. ثم يدعوهم هكذا: «اللَّهُمَّ إِنَّ العَيشَ عَيشُ الآخِرَة، فاغفِرِ الأَنصارَ والمهاجِرَةَ.» ثم يجيبه المسلمون:

نَحنُ الَّذيــنَ بَايَعُوا مُحَمَّدا عَلَــى الجِهادِ مــا بَقِينا اَبَداً

(ابن كثير، ۱۹۸۶م: ۹۵/۴؛ الواقدی، ۱۹۸۹م: ۴۵۳/۲؛ الذهبی، ۱۹۹۳م: ۲۹۸/۲)

وروی أيضا أن النبی (ص) كان يقرأ رجز عبدالله بن رواحه حين حفره الخندق:

وَاللهِ لَــولا اللهُ مــا اهتَدَينا وَلا تَصَدَّقنــا وَلا صَلَّينــا
فَاَنزَلَــنَ سَــكينَهَ عَلَينــا وَثَبِّــتَ الاَقــدامَ اِن لاقَينا
اِنَّ الاُلــى قَــد بَغَــوا عَلَينا اِذا اَرادُوا فِتنَــة اَبينــا

(ابن كثير، ۱۹۸۶م: ۹۶/۴؛ الواقدی، ۱۹۸۹م: ۴۴۹/۲؛ الذهبی، ۱۹۹۳م: ۲۹۸/۲)

أی: أقسم بالله لو لم يكن الله يهدينا، لم يكن يؤيدنا ويصلی علينا ولم يكن يرسل علينا الهدوء ولم يكن يثبت أقدامنا، لكانوا يبغون علينا عند بغيهم على آبائنا.

وكذلک نقل أنه (ص) كان يقرأ هكذا:

بِســمِ اللهِ وَبِــه هَدَينــا وَلَوعَبَدنــا غَيرَهُ شَــقَينا
يا حَبَّذا رَبّاً وحَبَّ ديناً

(ابن كثير، ۱۹۸۶م: ۹۷/۴)

خرج نوفل بن عبدالله المخزومی من جيش المشركين إلى القتال وطلب المبارز، عندئذ خرج زبير بن عوام من جيش المشركين لقتاله وقتله بضربة سيفه بحيث انكسر سيفه. ثم رجع قارئا:

إِنّی امــرُؤٌ أَحمی وأَحتَمی عَنِ النَّبی المُصطَفى الأُمّی

(ابن كثير، ۱۹۸۶م: ۱۰۷/۴)

بعد أن طلب عمرو بن عبدودّ المبارز فی دفعات قال: «أَلا رَجُلٌ يَبرُزُ؟ فَجَعَلَ يُؤَنِّبُهُم ويَقُولُ: أَينَ جَنَّتُكُمُ الَّتِی تَزعُمُونَ أَنَّهُ مَن قُتِلَ مِنكُم دَخَلَها أَفَلا تُبرِزُونَ إِلَیَّ رَجُلاً؟»

فهكذا يقول:

وَلَقَـد بُحِحـتُ مِـنَ النِّداءِ لِجَمعِهِـم هَـل مِـن مُبارِزٍ
وَوَقَفـتُ إذ جَبُنَ المشَـجَّعُ مَوقِـفُ القَـرنِ المناجِـزِ
وَلِـذاكَ اِنّـي لَـم أَزَل مُتَسَـرِّعاً قَبـلَ الهُزاهِـزِ
أَنَّ الشُّـجاعَةَ فِـي الفَتـى والجُودُ مِـن خَيـرِ الغَرائِزِ

(ابن كثير، ١٩٨٦م: ١٠٦/٤؛ الواقدى، ١٩٨٩م: ٤٧٠/٢)

أى: لكثرة صراخى تألمت حنجرتى، ولأنى طلبت المبارز مرات، وأنا قائم كالقرن عندما يشتد الحرب، عندما أرى المحرضين إلى القتال خائفين، لهذا السبب أنا ما زلت مشتاقا إلى الحرب والقتال قبل أن يأتى وقت الهزيمة، والشجاعة فى الواقع من علامات الفتى، وكذلك الجود هو من أهم الغرائز.

ثم استجاز على (ع) النبى (ص) بإصرار كثير:

لا تَعجَلَـن فَقَـد أَتـاكَ مُجيبُ صَوتِكَ غَيرَ عاجِزِ
فـي نِيَّـهِ وَبَصيـرَهٍ وَالصِّدقُ مَنجـى كُلُّ فائِزِ
اِنِّـي لَأَرجُـو أَن أُقيـمَ عَليـكَ نائِحَـهُ الجَنائِـزِ
مِـن ضَربَـةٍ نَجـلاءِ يَبقى ذِكرُها عِنـدَ الهُزاهِزِ

(ابن كثير، ١٩٨٦م: ١٠٦/٤)

تنقل عائشة أن سعد بن معاذ كان يرتجز هكذا:

لَبِّث قَليلاً يَشهَدُ الهَيجا جَمَل لا بَأسَ بِالمَوتِ اِذا حانَ الأَجَل

(ابن كثير، ١٩٨٦م: ١٠٨/٤؛ الواقدى، ١٩٨٩م: ٤٦٩/٢؛ الذهبى، ١٩٩٣م: ٢٩١/٢)

ج. أراجيز صفين:

إن الأراجيز التى أنشدت فى وقعة صفين كثيرة جدا ونحن نكتفى بذكر جزء منها يتضمن مضامين متفاوتة رغم أن بعضها كذلك أنشدت فى جواب رجز آخر من العدو مثل ما ارتجز به عمرو بن عاص فى اليوم الأول من الحرب:

لا تَأمَنّا بَعدَها أَبا حَسَنِ إنّا نَمُرُّ الحَربَ إمرارَ الرَّسَنِ
لَتُصبِحُنَّ مِثلَها أمُّ لَبَنِ طاحِنَةٌ تَدُقُّكُم دَقَّ الحَفَنِ

وأجابه شاعر من العراق:

أَلا أُحذُروا فِی حَربِكُم أَبا الحَسَنِ لَيثاً أَبا شِبلَينِ مَحذُوراً فَطِنِ
يَدُقُّكُم دَقَّ المَهاريسَ الطَّحَنِ لَتَغبِنُنَّ يا جاهِلاً أَيَّ غَبنِ
حَتّی تَعُضُّ الكَفَّ أَو تَقرَعُ السِّنَّ ندامَةَ أَن فاتَكُم عَدلُ السُّنَنِ

(المنقری، ۱۳۸۲ش: ۲۴۲)

أی: أنا أحذركم فی أن لاتقاتلوا أب أسدين الذی هو فطن. الذی يطحنكم كما يطحن القمح فی المطحن. لولا تعلمون هذا فاعلموا أنكم غدرتم. بحيث سوف تعضون أيديكم لفقدكم السنن العادلة.

وقد نری بين هذه الأراجيز الهجو، كما نری أن مجزاة بن ثور – بعد أن تهجم قبيلة ربيعة علی عسكر الشاميين وينهزم العسكر – يرتجز:

أَضرِبُهُم وَلا أَری مُعاوِيَةَ الأَبرَجَ العيِنِ العظيم الحاوِيَة
هَوَت بِه فِی النّارِ أُمُّ هاوِيَةَ جاوَرَهُ فيها كِلابٌ عاوِيَة

(المصدر نفسه: ۳۰۵)

يعنی: أنا أقاتلهم لكنی لا أری بينهم معاوية القبيح، الذی سوف يسقط فی الجحيم، ويجاور الكلاب الوحشية.

والنقطة البارزة فی هذا الحرب أنه فی الأراجيز الموجودة من هذه الوقعة تسود العلاقات القبائلية علی باقی المعانی. علی سبيل المثال نلتفت إلی هذه الأرجوزة:

قَد ضارَبَت فی حَربِها هَوازِنٌ اَولاکَ قَومٌ لَهُم مَحاسِنٌ

(المصدر نفسه: ۳۱۲)

يعنی: هو قتله بضربته أحدا من قبيلة هوازن، القبيلة التی كانت مشهورة بالسيرة الحسنة.

قَد حافَظَت فِی حَربِها بَنُو أَسَد ما مِثلها تَحتَ العِجاجِ مِن أَحَدِ
أَقرَبُ مِن يَمَن وَأَنأَی مِن نَكَدِ كَأَنَّنا رَكنا ثَبيرَ أَو أُحُدِ

لَســنا بِأَوباش وَلا بيضَ البَلدِ لكِنَّنــا المحَّــة مِــن وُلــدِ مَعَدِ
كنتَ تَرانا فِى العِجاجِ كَالأَسَدِ يا لَيتَ رُوحِى قَدنَأى عَنِ الجَسَدِ

(المصدر نفسه: ٣١١)

يعنى: أن بنى أسد دافعت فى الحرب عن نفسها، لكن لاتجد مثلهم تحت غبار الحرب، إنهم أقرب إلى اليمن وأبعد عن الشقاوة، كأننا قائمون مثل جبل ثبير وأحد، نحن لسنا كالأوباش نمن الناس – يعنى مثل أعدائنا–، بل نحن النخبة من أبناء معد، وكنت ترينا فى شدائد الحرب مثل الأسود ، يا ليت روحى يخرج من الجسم وأموت فى الحرب.

ومما يجدر الإشارة إليه هو أنّ العصبية القبلية قليلة فى الأراجيز الموجودة فى وقعة كربلاء، وأنّ الراجز لايغفل عن ذكر الله حينما يثير العصبية القومية:

قَد صابَرتُ فِى حَربِها كَنانَه وَاللهُ يُجزيهــا بِهــا جَنانَــه

(المصدر نفسه: ٣١٠)

قَد سارَعَت فِى نَصرِها رَبيعَه فِى الحَقِّ وَالحَقِّ لَهُم شَريعَه

(المصدر نفسه: ٢٩٩)

يذكر الدكتور عدنان محمد أحمد فى مقالة بعنوان الشعر فى موقعة صفين: «ويُمكِنُ أن نُلاحِظَ فِى هذه الأَرجازِ أَنَّ قائليها، برغم اهتمامِهم بِتَحريضِ المقاتِلينَ مِن خِلالِ إثارهِ الحَميّةِ القَبليةِ لدَيهِم، لَم يَغفُلُوا أَهمّيَّةَ الاستفادةِ مِنَ النَّزعَةِ الدّينيةِ، وكانَ طَبيعيّاً أَن تَختَلِطَ فِى الأَذهانِ الحَميّةِ الجاهِليةِ القَبليةِ وَالنَّزعَةِ الدّينيّةِ، وَقَد تَلاقَتا، أَو تَوافَتا، فى بَؤرَةٍ تَجَمَّعَت فيها شَتّى المؤَثِّرات مِمّا خالَجَ ضَمائرَ النّاسِ فِى هذا الجانِبِ أَو ذاكَ.»

(عدنان محمد، ٢٠٠٥م: ٣٢١)

والشىء الآخر الذى نراه فى هذه الأراجيز هو، الحماية عن على (ع) والدفاع عن الحق. خاصة فى أراجيز عمار ياسر:

كَلّا ورَبَّ البَيتِ لا أَبرحُ أَجى حَتّى أَموتَ أَو أَرى ما أَشتَهى
أَنا مَــع الحقِ أُحامى عَن علىٍ صِهر النَّبىِ ذِى الأَماناتِ الوَفى

نَقتُـلُ أَعـداءَهُ ویَنصُرُنا العَلی ونَقطَعُ الهـامَّ بِحَدِّ المشـرفی
واللهُ یَنصُرُنـا عَلـی مَن یَبتَغی ظُلمـاً عَلَینا جاهِـداً ما یَأتَلی

(المصدر نفسه: ۳۴۳)

نَحـنُ ضَرَبناکُم علـی تَنزیلِه فَالیـومَ نَضرِبُکُم عَلـی تَأویلِه
ضَرباً یُزیـلُ الهامَّ عَـن مَقیلِه ویُذهَـلُ الخَلیـلُ عَـن خَلیلِه

(المصدر نفسه:۳۴۱)

أو أراجیز جندب بن زهیر:

هـذا عَلـیٌّ وَالهُـدی حَقّـاً مَعَه یـا رَبِّ فَاحفَظـهُ ولا تَضیعَـه
فَإِنَّـهُ یَخشـاکَ رَبّـی فَارفَعَـه نَحـنُ نَصَرنـاهُ عَلی مَـن نازَعَه
صِهرُ النَّبـیّ المصطَفی قَد طاوَعَه أَولُ مَـن بایَعَـهُ وتابَعَـهُ

(المصدر نفسه: ۳۹۸)

لکن علینا أن لانغفل عن أنه هناک عدد مشهود من الأراجیز التی فیها الصبغة الجاهلیة، مثلا عندما یهجم جیش عراق علی جیش الشام یرتجز أحدهم قائلا:

سـائِل حَبیبَـةَ مَعبَدٍ عَـن بَعلِها وحَلیلَـةَ اللَّخمـی وابـنَ کِلاعِ
وَاسـأَل عَـدُو اللهِ عَـن أَرماحِنا لَمّـا ثَـوَی مُتَجَـدِّلاً بِالقـاعِ
وَاسـأَل مُعاوِیَـةَ المُوَلّـی هارِباً والخَیلَ تَعـدُو وهِیَ جَدّ سُـراعِ
مـا ذا یُخَبِّـرُکَ المخَبِّـرُ صادِقاً عَنّـا وعَنهُـم عِنـدَ کُلِّ دِفـاعِ
إِن یُصَدِّقُـوکَ یُخَبِّـرُوکَ بِأَنَّنـا أَهـلُ النَّدی مُستَسـمِعُوا لِلدّاعِی
نَدعُوا إِلَی التَّقـوی وَنَرعی أَهلَها بِرِعایـةِ المَامُـونِ لا المِضیـاعِ
وَنَسُـنُّ لِلأَعـداءِ کُلَّ مُثَقَّـفٍ لَـدُن وکُلَّ مُهَنَّـدٍ قَطّـاعِ

(ابن أعثم، ۱۹۹۱م: ۱۲۳/۳؛ المنقری، ۱۳۸۲ش: ۳۸۰)

أی: إسأل حبیبة المعبد عن بعلها، واسأل حول المرأة اللخمیة التی هی من بنات کلاب، واسأل أعداء الله حول أرماحنا، عندما مهیئة للقتال، واسأل معاویة الخائف الذی هرب عن ساحة القتال، الذی یرکض والجیش خلفه، ماذا قال ذلک المنبیء

الصادق حولنا وحولهم، لو يكن صادقا لقد قال لک أننا أهل القتال ونستمع للداعی إلی الحرب، نحن ندعو إلی التقوی ونراعی أهله، رعاية مطمئنة، وندخل أرماحنا فی أجساد أعدائنا.

د. دراسة مفهومية فی أراجيز عاشوراء

إنّ الأراجيز التی أنشدها أصحاب الإمام الحسين(ع) فی يوم عاشورا كانت تتضمن معان مختلفة، منها:

١. الأراجيز حول التعرف علی الإمام الحسين (ع)

إنّ الإشارة إلی مقام سيد الشهداء ومكانته (ع) وذكر قرابته النسبية إلی النبی الأعظم (ص) كان أحد الموضوعات المهمة التی تناوله أصحاب الإمام (ع) فی أراجيزهم الحماسية. وتكمن أهمية هذه الأراجيز فی أنها تُعدّ تذكارا وتنبيها لإيقاظ جيش عمر بن سعد الذين كأنهم قد نسوا فی وجه من يقاتلون، وكأنهم لم يكونوا يعلمون أنهم يريدون قتل أی شخصية، النقطة التی يشير إليها سيد الشهداء (ع) بنفسه فی بيانه هذا:

«فَانسِبوُنِی فَانظُرُوا مَن أنا، ثُمَّ ارجِعُوا إلی أنفُسِكُم وعاتِبُوها، فَانظُرُوا، هَل يَحِلُّ لَكُم قَتلِی وانتِهاكُ حُرمَتِی؟ أَلَستُ ابنَ بِنتِ نَبِيِّكُم (ص) وابنَ وَصِيِّه وابن عَمِّه، وأوَّل المُؤمِنِينَ بِاللهِ والمصَدِّقَ لِرَسُولِه بِما جاءَ بِه مِن عِندِ رَبِّه! أو لَيسَ حَمزَهُ سَيِّدُ الشُّهَداءِ عَمَّ أَبِی! أولَيسَ جَعفَرٌ الشَّهيدُ الطَّيّارُ ذُوالجَناحَينِ عَمِّی! أو لَم يَبلُغكُم قَولٌ مُستَفيضٌ فيكُم إنَّ رَسُولَ اللهِ (ص) قالَ لِی ولِاَخِی: هذانِ سَيّدا شَبابِ أهلِ الجَنّه!» (الطبری، ١٩٦٧م: ۴۲۵/۵)

ومن أمتن هذه الأراجيز هو رجز حجاج بن مسروق، مؤذن الإمام الحسين(ع):

أَقـدَمُ حُسَـيناً هادِيـاً مَهدِياً اليَـومَ نَلقـی جَـدَّکَ النَّبيّـا
ثُـمَّ أَبـاک ذَا النَّـدی عَليّـاً ذاکَ الَّـذِی نَعرِفُـهُ وَصيّـاً

(ابن شهر آشوب، ١٣٧٩ش: ١٠٣/۴؛ المجلسی، ١۴٠۴ق: ٢۵/۴۵؛ ابن أعثم، ١٩٩١م: ١٠٩/۵)

والمثال الآخر هو رجز سعيد بن عبد الله حنفی الذی يقول فی أرجوزته:

أَقدَم حُسَـين اليَومَ تَلقَى أَحمدا وَشَـيخَکَ الحِبرَ عَليّـاً ذَا النَّدا
وَحَسَـناً كَالبَدرِ وافِی الأسـعَدا وَعَمَّـکَ القَومِ الهُمامِ الأَرشَـدا
حَمـزَهَ لَيـثَ اللهِ يـدُعـی و ذا الجَنـاحَينِ تَبـوَأُ مَـقعَدا

(المجلسی، ۱۴۰۴ق: ۲۶/۴۵؛ ابن شهر آشوب، ۱۳۷۹ش: ۱۰۳/۴؛ ابن أعثم، ۱۹۹۱م: ۱۰۹/۵)

والأمر الذی هو جدیر بالذکر أننا نری أن الراجزین فی هذه الأرجوزات خرجوا من الموضوعات المتعارفة فی الرجز مثل شجاعة الراجز أو قبیلته أو هجو العدو و... و یذکرون فقط عظمة عترة النبی(ص) وأهل بیته (ع).

۲. الدفاع عن أهل البیت(ع)

من أحسن الأراجیز المنشدة فی هذا الموضوع نستطیع أن نذکر رجز (جون) مولی أبی ذر الغفاری:

كَيفَ يَرى الكُفّارُ ضَربَ الأُسوُدِ بالسَّـيفِ ضَرباً عَن بَنی مُحَمَّدِ
أَذُبُّ عَنهُـم بِاللِّسـانِ واليَـدِ أَرجُـو بِـهِ الجَنَّهَ يَـومَ المورِدِ

(المجلسی،۱۴۰۴ق: ۲۲/۴۵؛ ابن شهر آشوب، ۱۳۷۹ش: ۱۰۳/۴؛ البلاذری، ۱۹۹۶م: ۱۹۶/۳؛ ابن أعثم، ۱۹۹۱م: ۱۰۸/۵)

قد یری هذا الموضوع فی أراجیز الکثیر من أصحاب الإمام (ع) لکن هنا یشکّل المفهوم الأصلی للرجز. بعبارة أخری، کان قصد جمیع أنصار أبی عبدالله (ع) الدفاع عنه وهذا أمر لایشک فیه أحد. یعتبر رجز حرّ بن یزید ریاحی نموذجا لهذا المعنی:

إنِّی أَنا الحُـرُّ وَمأوَی الضَّيفِ أَضرِبُ فِی أَعناقِكُم بِالسَّيفِ
عَن خَيرِ مَن حَلَّ بِأَرضِ الخَيفِ أَضرِبُكُـم وَلا أَرى مِن حَيفِ

(المجلسی، ۱۴۰۴ق: ۳۱۹/۴۴ و۱۴/۴۵؛ الشیخ الصدوق، ۱۴۰۴ق: ۱۵۹؛ الفتال، لاتا: ۱۸۶/۱؛ ابن شهرآشوب، ۱۳۷۹ش: ۱۰۰/۴؛ البلاذری، ۱۹۹۶م: ۱۵۹/۳؛ ابن أعثم، ۱۹۹۱م: ۱۰۱/۵)

۳. مذمة الأعداء

إنّ الموضوع الآخر الذى ارتجز حوله أصحاب سيد الشهداء (ع) هو مذمة الأعداء وانتسابهم إلى الكفر والفسق. كما يرتجز محمد بن عبدالله بن جعفر بن أبىطالب (ع) عندما يريد الذهاب إلى المعركة:

نَشكُوا إلَى اللهِ مِن العُدوانِ قِتالَ قَومٍ فِى الرَّدى عَميانِ
قَد تَرَكُوا مَعالِمَ القُرآنِ ومُحكَمَ التَّرتيلِ والتِّبيانِ

(ابن شهر آشوب، ۱۳۷۹ش: ۱۰۶/۴؛ ابن أعثم، ۱۹۹۱م: ۱۱۱/۵)

كذلک نستطيع أن نشير إلى رجز عمر بن على بن أبىطالب(ع) فى هذا الموضوع الذى يرتجز بعد أن يستشهد أخوه أبوبكر بن على(ع) على يد زحر بن بدر نخعى:

أضرِبُكُم وَلا أَرى فيكُم زَحَر ذاکَ الشَّقىَّ بِالنَّبِىِّ قَد كَفَر
يا زَحَر يا زَحَر تُدانُ مِن عُمَر لَعَلَّکَ اليَومَ تَبُوأُ مِن سَقَر
شَرَّ مَكانٍ فِى حَريقٍ وسَعَر لأَنَّکَ الجاحِدَ يا شَرَّ البَشَر

(المجلسى، ۱۴۰۴ق: ۳۷/۴۵؛ ابن أعثم، ۱۹۹۱م: ۱۱۳/۵)

۴. طلب المبارز

لانرى تفاوتا جازما فى هذا الشأن بين أراجيز عاشوراء وأراجيز العصر الجاهلى إلا أنه لابد لنا أن نعترف بأن النية فى أراجيز عاشورا لاينحصر فى بيان شجاعة الشخص فحسب بل إن الراجز فى كربلاء يريد أن يدافع عن عقائده وعن إمامه، إذن هناک بون شاسع بين داعى الراجز فى كربلاء فى ارتجازه بأراجيز محتوية على شجاعته وبين الراجز فى العصر الجاهلى الذى كان يريد من ذكر شجاعته إلقاء الرعب فى قلب عدوه والتفاخر بنفسه فحسب.

إذن علينا أن نعرف أن غالب الأراجيز فى العصر الجاهلى أنشدت فى حال التساوى فى احتمال غلبة كل فريق على الآخر، والراجز كان يرتجز بواسطة الاطمئنان إلى قومه وعشيرته خلافا لراجزى كربلاء الذين كانوا يعلمون نهاية أمرهم وهى الشهادة. نذكر

مثالا لتوضیح الأمر:

یرتجز أحد موالی الإمام (ع) بعد أن أرادَ الذهاب إلی معرکة القتال:

البَحرُ مِن طَعنِی وَضَربِی یصطَلِی وَالجَو مِن نُبلِی وَسَهمِی یَمتَلِی
إِذا حُسامِی عَن یَمینِی ینجَلِی یَنشَقُّ قَلبُ الحاسِدِ المبَجَّلِ

(المجلسی، ۱۴۰۴ق: ۳۰/۴۵؛ ابن شهر آشوب، ۱۳۷۹ش: ۱۰۴/۴۰)

ویرتجز عبدالله بن الحسن (ع):

إِن تَنکُرُونِی فَأَنا ابنُ حَیدَرَة ضَرغامُ آجام ولَیث قَسوَرة
عَلَی الأَعادِی مِثلُ ریحٍ صَرصَرة أَکیلُکُم بِالسَّیفِ کَیلَ السَّندَرَة

(المجلسی، ۱۴۰۴ق: ۴۲/۴۵؛ ابن شهر آشوب، ۱۳۷۹ش: ۱۰۹/۴)

کما أنه نقل حول حرّ بن یزید ریاحی بأنه عندما عقروا حصانه فی المعرکة، نزل منه وارتجز کلیث هزبر:

إِن تَعقَرُونِی فَأَنا ابنُ الحُرِّ أَشجَعُ مَن ذَی لَبدِ هُزَبر
ولَستُ بِالجِبانِ عِندَ الکَرِّ لکِنّنِی الوَقّافُ عِندَ الفَرِّ

(ابن أعثم، ۱۹۹۱م: ۱۰۲/۵؛ المجلسی، ۱۴۰۴ ق: ۱۴/۴۵؛ ابن کثیر، ۱۹۸۶م: ۱۸۲/۸؛ الطبری، ۱۹۶۷م: ۴۳۷/۵)

وهکذا یرتجز إبراهیم بن حصین الأسدی:

أَضرِبُ مِنکُم مَفصَلاً وساقاً لِیُهرِقَ الیَومَ دَمِی إِهراقا
ویَرزُقُ المَوتَ أَبُو إِسحاقا أَعنِی بَنِی الفاجِرَةِ الفُسّاقا

(ابن شهر آشوب، ۱۳۷۹ش: ۱۰۵/۴؛ سپهر، لاتا: ۲۶۴/۶)

۵. الاشتیاق إلی الاستشهاد فی سبیل الله واستقبال الموت

هذا المفهوم من المفاهیم الشائعة فی أراجیز کربلاء. والراجز فی هذه الأراجیز یتکلم حول مبارزة الأعداء والافتخارات القومیة فی سبیل الدین وشوقه إلی لقاء الله والاستشهاد فی سبیله وفی سبیل الدفاع عن ذریة رسول الله(ص).... ومن أجمل هذه

الأراجيز ما ارتجز به عمرو بن خالد الأزدی:

إلَیکَ یـا نَفسُ إلَـی الرَّحمنِ تَمضیـنَ بِالـرُّوحِ والرَّیحـانِ
الیَـومَ تَجزینَ عَلی الإحسـانِ قَـد کانَ مِنـکَ غابِـرَ الزَّمانِ
ما خُطَّ فِی اللَّـوحِ لَدی الدَّیَّانِ لا تَجزَعِـی فَـکُلُّ حَـیٍّ فانِ
والصّبرُ أحظـی لَکَ بِالأَمانِی یا مَعشَـرَ الأَزُدَ بَنِی قَحطانِ

(ابن شهر آشوب، ۱۳۷۹ش: ۱۰۱/۴؛ المجلسی، ۱۴۰۴ق: ۱۸/۴۵؛ ابن أعثم، ۱۹۹۱م: ۱۰۵/۵؛ البلاذری، ۱۹۹۶م: ۱۹۶/۳)

وبعد استشهاده یأتی ابنه خالد بن عمرو الأزدی ویرتجز فی ساحة القتال:

صَبراً عَلَی المَوتِ بَنِی قَحطانِ کَیما تَکُونُوا فِی رِضَی الرَّحمنِ
ذِی المَجدِ والعِـزَّهِ والبُرهانِ وَذِی العُلی والطَّولِ والإحسانِ
یا أَبَتا قَـد صِرتُ فِی الجَنانِ فِی قَصرِ رَبِّ حَسَـنَ البُنیانِ

(المجلسی، ۱۴۰۴ق: ۱۸/۴۵؛ ابن شهر آشوب، ۱۳۷۹ش: ۱۰۱/۴؛ ابن أعثم، ۱۹۹۱م: ۱۰۵/۵)

هـ. أما الأراجیز المنشدة بواسطة جیش عمر بن سعد

لم یذکر فی المصادر الروائیة والتاریخیة، أراجیز کثیرة من جیش عمر بن سعد فی یوم عاشوراء. هناک احتمالان فی سبب هذا الأمر: إما أنه ما نقلها الکتب التاریخیة لأی سبب من الأسباب. والثانی أنهم لم یرتجزوا أصلا. ونحن نختار الاحتمال الثانی إذ إنّ أمراء جیش عمر بن سعد کانوا ینهون الناس من المقابلة وجها للوجه مع أصحاب سید الشهداء (ع).

فیما یلی یرد رجز من حصین بن نمیر ورجز من سنان بن أنس وشعر من بجیر بن أوس لکن الأخیر لیس فی بحر الرجز.

۱. حصین بن نمیر

ورد فی کتاب (ناسخ التواریخ) أن حصین بن نمیر هجم علی حبیب بن مظاهر وقرأ

هذا الرجز:

دونَـکَ ضَـربُ السَّـیفِ یا وافـاکَ لَیـثٌ بَطَـلٌ نَجیبُ
حَبیبُ فِی کَفِّـه مُهَنَّدٌ قَضیبُ کأنَّـه مِـن لَمعَـةِ حَلیـبُ

(سپهر، لاتا: ۲۵۶/۶)

۲. سنان بن أنس

وجاء فی کتاب (بحار الأنوار) أن سنان حینما أتی برأس الإمام الحسین (ع) إلی عبید الله بن زیاد ارتجز قائلا:

إمـلأ رِکابِـی فِضَّـهً وذَهَبا أَنـا قَتَلتُ المَلِـکَ المحَجَّبا
قَتَلـتُ خَیرَ النّـاسِ أُمّاً وأَبا وخَیرَهُم إذ یَنسِبُون نَسَبـا

عندئذ غضب عبید الله من هذا الکلام وقال له: «وَیحَکَ فَإن عَلِمتَ أَنَّهُ خَیرَ النّاسِ أباً وأمّاً لِمَ قَتَلتَهُ؟» ویأمر بضرب عنقه. (المجلسی، ۱۴۰۴ق: ۳۲۲/۴۴؛ ابن شهر آشوب، ۱۳۷۹ش: ۱۱۳/۴؛ الفتال، لاتا: ۱۹۰/۱؛ الطبری، ۱۹۶۷م: ۳۹۰/۵)

۳. بجیر بن أوس

ورد فی کتاب (ناسخ التواریخ) أن بجیر بن أوس الذی کان من جیش عمر بن سعد، یقتل أحد أصحاب سید الشهداء (ع) باسم بریر بن خضیر ثم یرتجز:

سَـلِی تُخَبِّری عَنِّی وأَنتِ ذَمیمَة غَداة حُسَـینٍ والرِّماحُ شَـوارِعُ
أَلَم آتِ أقصی ما کَرِهتُ ولم یَحُل غَـداة الوَغی وَالرَّوع ما اَنا صانِعُ
مَعـی مَزَنِـی لَـم تَخُنـهُ کُعُوبُه وأَبیَض مَشـحوذُ الغَرارینِ قاطِعُ
فَجَرَّدتُهُ فِی عُصَبَـةٍ لَیسَ دینُهُم کَدینـی وإنِّـی بَعـدَ ذاکَ لَقانِعُ
وَقَد صَبَرُوا لِلطَّعنِ والضَّربِ حُسَّرا وقَد جالَـدُوا لَو أَنَّ ذلـکَ نافِعُ
فَأَبلِـغ عُبَیـدَ اللهِ إذ مـا لَقیتَـهُ بِأَنِّـی مُطیـعٌ لِلخَلیفَـهِ سـامِعُ
قَتَلتُ بُرَیراً ثُمَّ جُلتُ لِهِمَّةٍ غَداة الوَغی لَمّا دَعا مَن یُقارِعُ

(سپهر، لاتا: ٢٥٠/٦؛ المجلسی، ١٤٠٤ق: ١٥/٤٥؛ الطبری، ١٩٦٧م: ٤٣٣/٥)

من خلال ما تقدّم يستنتج أن أراجيز كربلاء يعد مظهرا لتقابل السنن الجاهلية والروحية الإسلامية. وها هنا يقول الإمام على (ع) لأهل الكوفة: «أَلاَ وَإِنَّكُمْ قَد نَفَضْتُمْ أَيْدِيَكُمْ مِنْ حَبْلِ الطاعَه، وَثَلَمْتُمْ حِصْنَ اللهِ الْمَضْرُوبَ عَلَيْكُمْ، بِأَحْكَامِ الْجَاهِلِيَّه... وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ صِرْتُمْ بَعْدَ الْهِجْرَه أَعْرَاباً، وَبَعْدَ الْمُوَالاَة أَحْزَاباً، مَا تَتَعَلَّقُونَ مِنَ الْإِسْلاَمِ إِلاَّ بِاسْمِه، وَلاَ تَعْرِفُونَ مِنَ الْإِيمَانِ إِلاَّ رَسْمَهُ.» (الإمام علی(ع)، خ١٩٢: ٩٠)

ونستطيع أن نرى ذروة هذا التقابل والرجوع إلى الجاهلية وهب نيران العصبية القومية فی كلمات الإمام الحسين (ع) عندما يخاطبهم الإمام (ع) ويقول: «وَيلَكُم! عَلى مَا تُقاتِلُونِی؟! عَلى حَقٍّ تَرَكتُهُ أَم عَلى سُنَّهٍ غَيّرتُها أَم عَلى شَريعَهٍ بَدَّلتُها؟» وهم أجابوا: «بَل نُقاتِلُكَ بُغضاً مِنّا لِأَبيكَ وما فَعَلَ بِأشياخِنا يَومَ بَدرٍ وحُنَينٍ.» (سپهر، لاتا: ٢٨٦/٦)

أدب المقاومة فی كربلاء:

أحدثت واقعة كربلاء ويوم الطفّ حركة شعبية – سياسية بين المسلمين، أدت إلى إسقاط الأمويين، وكذلک أحدث أدب عاشوراء فی الأدب العربی حركة بديعة باسم أدب المقاومة الذی ظهر بصورة الأشعار السياسية فی الدفاع عن أهل البيت (ع). على سبيل المثال نستطيع أن نشير إلى رجز (سليمان بن صرد) قائد قيام التوابين فی معركة عين الوردة أمام جيش الشام. ورد فی كتاب (الفتوح):

«وَجَعَلَ سُلَيمانُ بنُ صُرَدٍ يُنادِی بِأَعلى صَوتِه: يا شيعَةَ آلِ مُحَمَّدٍ! يا مَن يَطلُبُ بِدَمِ الشَّهيدِ ابنِ فاطِمَةَ! أبشِرُوا بِكَرامَةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَواللهِ ما بَينَكُم وبَينَ الشَّهادَةِ ودُخُولِ الجَنَّةِ والرّاحَةِ مِن هذِهِ الدُّنيا إِلّا فِراقُ الأَنفُسِ والتَّوبَةُ والوَفاءُ بِالعَهدِ. ثُمَّ كَسَرَ سُلَيمانُ بنُ صُرَدٍ جَفنَ سَيفِهِ وتَقَدَّمَ نَحوَ أَهلِ الشّامِ وهُوَ يَرتَجِزُ ويَقُولُ:

إِلَيــكَ رَبِّی تُبتُ مِــن ذُنُوبِی وَقَد عَلانِی فِی الوَرى مَشيبِی

فَارحَم عُبَيداً غَيرَ ما تَكذيبِی وَاغفِر ذُنُوبِی سَــيِّدِی وحُوبِی

ثُمَ حَمَلَ ولَم يَزَل يُقاتِلُ حَتّى قَتَلَ مِنهُم جَماعَةً وقُتِل.» (ابن أعثم، ١٩٩١م: ٢٢٢/٦)

والمثال الآخر هو رجز (عبيد الله بن حر) عندما ندم عن عدم نصرته سيد الشهداء

(ع):

فَیا لَکَ حَسـرَة ما دُمـتُ حَیّاً تُـرَدِّدُ بَیـنَ حَلقِـی والتَّراقِی
حُسَینٌ حِینَ یَطلُبُ بَذلَ نَصری عَلـی أَهـلِ العَداوَةِ والشِّـقاقِ
فَما أَنسـی غَـداةً یَقُـولُ حَزَنا أَتَترُکُنِـی وَتَدمَـعُ لِانطِـلاقِ؟
فَلَـو فَلَـقَ التَّلَهُفُ قَلـبَ حَیٍّ لَهُـم القَلـبُ مِنِّـی بِانفِـلاقِ

(الدینوری، ۱۳۶۸ش: ۲۶۲)

النتیجة

وقد توصلت هذه الدراسة إلی عدّة نتائج من أهمّها:

- بعد دراسة الرجز نستطیع القول بأن معظم الأراجیر الجاهلیة کانت حول موضوعات نفسانیة وأرضیة وغیر شاملة للقیم الإنسانیة؛ بل وفی بعض الأحیان کانت تعتبر بعض الأمور المشترکة بین الإنسان والحیوان أمرا ذا قیمة یجدر التفاخر به مثل التفاخر إلی القتل والنحب والزور والفجور و... وذلک خلافا للأراجیز الموجودة فی العصر الإسلامی التی کانت معظمها حول القیم المتعالیة الإنسانیة والإلهیة مثل التفاخر إلی حمایة المظلومین وجلب رضا الله ورسوله وترک بعض اللذات الدنیویة للحصول علی الدرجات الأخرویة و... لاسیما فی أراجیز عاشوراء التی نعتقد إنها تکون شمس تعالی الرجز فی العصر الإسلامی.

– إن الأراجیز المنشدة فی المعارک الأولی من العصر الإسلامی مثل بدر، وأحد، وخندق، وصفین لا یمکنها أن تکون بصورة کاملة مرآة لتکامل الشعر والتفکر الإسلامی.

– إن أراجیز کربلاء یعدّ نموذجا متکاملا من التعالیم الإسلامیة التی تشکّل معانیها الأصلیة مفاهیم مثل الشوق إلی الشهادة والدفاع عن أهل البیت والصمود أمام الظلم. کذلک هی تعدّ نموذجا متعالیا من أدب المقاومة الذی استطاع أن یؤثر فی الأدب السیاسی الذی ظهر بعده.

– إن أراجيز عاشوراء بالمقارنة مع الأراجيز المنشدة من قبل الكوفيين يحتسب كميدان تقابل بين القيم الإسلامية والقيم السائدة فی الساحة الجاهلية، انطلاقا من هذا الموقف نستطيع أن نقارن قيام الإمام حسين(ع) إلى الكوفة بالهجرة النبوية إلى المدينة، فی أن هجرته (ص) كان بقصد بناء الإسلام وهجرة الإمام الحسين (ع) كان بقصد حفظه وإصلاحه.

المصادر والمراجع

الإمام علی بن أبی‌طالب(ع). ۱۴۲۲ق. *نهج البلاغة*. قم: مؤسسة النشر الإسلامی.

ابن أعثم، أحمد الكوفی. ۱۴۱۱ق/۱۹۹۱م. *الفتوح*. تحقيق علی شيری. بيروت: دارالأضواء.

ابن الأثير، علی بن أبی الكرم. ۱۳۸۵ق/۱۹۶۵م. *الكامل فی التاريخ*. بيروت: دار صادر – دار بيروت.

ابن جنی، أبی الفتح عثمان. ۱۴۰۷ق/۱۹۸۷م. *كتاب العروض*. تحقيق: د أحمد فوزی الهيب. الكويت: دار القلم.

ابن شهرآشوب، محمد. ۱۳۷۹ش. *مناقب آل أبی طالب*. قم: مؤسسة العلامة للنشر.

ابن كثير، أبوالفداء إسماعيل بن عمر. ۱۴۰۷ق/۱۹۸۶ م. *البداية والنهاية*. بيروت: دار الفكر.

ابن منظور، محمد بن مكرم. لاتا. *لسان العرب*. بيروت: دار صادر.

أبوداود، سليمان بن الأشعث. لاتا. *سنن أبی داود*. تحقيق: محمد محيی الدين عبد الحميد. بيروت: دار الفكر.

امرؤالقيس. لاتا. *الديوان*. تحقيق: محمد أبوالفضل إبراهيم. القاهرة: دارالمعارف.

بروكلمان، كارل. لاتا. *تاريخ الأدب العربی*. ترجمه الدكتور عبدالرحيم نجار. قاهرة: دار المعارف.

البلاذری، أحمد بن يحيی بن جابر. ۱۴۱۷ق/۱۹۹۶. *جمل من أنساب الأشراف*. تحقيق سهيل زكار ورياض زركلی. بيروت: دار الفكر.

البيهقی، أبوبكر أحمد بن الحسين بن علی بن موسی. ۱۴۱۴ق/۱۹۹۴م. *سنن البيهقی الكبری*. تحقيق: محمد عبد القادر عطا. مكة المكرمة: مكتبة دار الباز.

الجاحظ، عمرو بن بحر. ۱۹۶۸م. *البيان والتبيين*. تحقيق: المحامی فوزی عطوی. بيروت: دار صعب.

الدينوری، أحمد بن داود. ۱۳۶۸ش. *الأخبار الطوال*. تحقيق عبد المنعم عامر. قم: منشورات الرضی.

الذهبی، محمد بن أحمد. ۱۴۱۳ق/۱۹۹۳م. *تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام*. تحقيق عمر عبد السلام تدمری. بيروت: دار الكتاب العربی.

سپهر، میرزا محمد تقی (لسان الملک). لاتا. *ناسخ التواریخ*. تهران: انتشارات امیرکبیر.
الشیخ الصدوق،۱۴۰۴ق. *الأمالی*. قم: المکتبة الإسلامیة.
الطبری، محمد بن جریر. ۱۳۸۷ق/۱۹۶۷. *تاریخ الأمم والملوک*. تحقیق محمد أبوالفضل إبراهیم. بیروت: دار التراث.
أحمد، عدنان محمد. ۲۰۰۵م. *الشعر فی موقعة صفین*. مجلة جامعة تشرین للدراسات والبحوث العلمیة _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانیة، المجلد ۲۷، العدد۱.
عمروبن کلثوم. ۱۴۴۱ق/۱۹۹۱م. *الدیوان*. جمعه وحققه وشرحه إمیل بدیع یعقوب. بیروت: دار الکتاب العربی.
الفتال، محمد بن الحسن. لاتا. *روضة الواعظین*. قم: دار الرضی.
لبید بن ربیعة. ۱۴۱۴ق/۱۹۹۳م. *الدیوان*. شرح الطوسی. بیروت: دار الکتاب العربی.
مایو، قدری. ۱۴۲۱ق/۲۰۰۰م. *المعین فی العروض والقافیة*. بیروت: عالم الکتاب.
المجلسی، محمد باقر. ۱۴۰۴ق. *بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الائمة الأطهار*. بیروت: مؤسسة الوفاء.
المسعودی، علی بن الحسین بن علی. ۱۴۰۹ق. *مروج الذهب ومعادن الجوهر*. تحقیق أسعد داغر. قم: دار الهجرة.
المنقری، نصر بن مزاحم. ۱۴۰۴ق. (۱۳۸۲ش. افست قم). *وقعة صفین*. تحقیق عبد السلام محمد هارون. القاهرة: المؤسسة العربیة الحدیثة. قم(افست): منشورات مکتبة المرعشی النجفی.
النابغة الذبیانی. ۱۴۴۱ق/۱۹۹۱م. *الدیوان*. شرح وتعلیق: الدکتور حنا نصر الحتی. بیروت: دار الکتاب العربی.
الواقدی، محمد بن عمر. ۱۴۰۹ق/۱۹۸۹م. *المغازی*. تحقیق مارسدن جونس. بیروت: مؤسسة الأعلمی.

پژوهشگاه علوم انسانی و مطالعات فرهنگی
پرتال جامع علوم انسانی